

السلطان سليمان خان القانوني

عمر على صهوة جواد



Joyline

السلطان سليمان خان القانوني

عمر على صهوة جواد

تستند هذه القصة إلى أحداث تاريخية، وقد صوّرت مشاهدتها وحواراتها بأسلوب أدبي.

لم تكن إسطنبول قد استيقظت بعد. في ساحة القصر، كان حصان يضرب الأرض بحافره نافذ الصبر. تفقد السائس السرج للمرة الأخيرة. وخلف الأبواب، كان الجنود يستعدون، وعربات الأحمال تصطف، والرايات تنبسط في نسيم الصباح. بعد قليل، ستبدأ رحلة طويلة.

حين خرج السلطان سليمان إلى الساحة، التفت إليه الجميع. مرّ السلطان الشاب يده على عنق حصانه. كانت أمامه طرق تستغرق شهوراً، وأنهار فائضة، وقلاع حصينة. وكانت جيوش الملوك ستقف في طريقه. وفي رحلة كهذه، لن يكون عليه أن يدبر أمر نفسه وحده، بل أن يقود آلاف الناس أيضاً.

وضع قدمه في الركاب وامتطى حصانه. فُتحت الأبواب الكبيرة. وكان اسم الحاكم الشاب الذي غادر إسطنبول في ذلك اليوم سيسمع يوماً في أرجاء العالم: السلطان سليمان خان القانوني.



كان سليمان ابن السلطان سليم ياووز. ومنذ طفولته، رأى المسؤولية التي يحملها الحاكم. كان يقرأ عن حروب الماضي في الكتب المفتوحة أمامه، ويبحث في الخرائط عن المدن البعيدة. لكن ما كان عليه أن يتعلمه لم يقتصر على الحروب. كان الاستماع إلى الناس، وفهم شؤون الدولة، والتعبير عن أفكاره بالكلمات المناسبة مهماً أيضاً.

تولى مهامه في مانيسا حين كان أميراً. هناك، قيم الأخبار الواردة واكتسب خبرة في الحكم. ثم وصله خبر وفاة أبيه. وأصبحت مسؤولية الدولة على عاتقه.

كان شاباً حين اعتلى العرش سنة 1520، لكن الدولة التي ورثها كانت شاسعة. وإلى جانب من وثقوا به، كان هناك حكام أرادوا اختباره. ولم يكن عليهم أن ينتظروا طويلاً ليعرفوا أي سلطان سيكون سليمان. كانت حملته الكبرى الأولى ستصل إلى بلغراد.



كانت قلعة بلغراد أشبه ببوابة حصينة ترتفع بجوار الأنهار. لها أسوار سميقة وأبراج وجنود يدافعون عنها. وقد صمدت أمام حصارات عثمانية سابقة. لم تكن البوابة التي أمام سليمان سهلة الفتح.

حين اقترب الجيش، تأمل السلطان الأسوار بعناية. فالدفاع القوية وحدها لم تكن تكفي للاستيلاء على قلعة. كان لا بد من السيطرة على الطرق، ومراقبة الأنهار، ووضع الجنود في المواقع المناسبة. ومع مرور الأيام، اشتد الحصار. وحتى في الليل، لم يكن العمل ينتهي في المعسكر؛ إذ كانت تجري الاستعدادات لليوم التالي.

في سنة 1521، استولى العثمانيون على بلغراد. حقق السلطان سليمان الشاب أول نجاح كبير له. وأصبح معبر مهم يؤدي إلى أوروبا في أيدي العثمانيين. وبدأ خصومه يدركون أن الحاكم الذي يواجهونه لن يبقى في ظل أبيه.



بعد بلغراد، توجه هذه المرة إلى قلعة في وسط البحر: رودس. كان فرسان القديس يوحنا يدافعون عنها. وكانوا ذوي خبرة في الحرب؛ لهم أسوار متينة وخنادق عميقة ودفاعات قوية.

طال الحصار أكثر فأكثر. مضى الصيف، وتغير الطقس، وظهر التعب على وجوه الجنود. كانت الثغرة التي تفتح يوماً ترمم في اليوم التالي، ويعقب كل هجوم استعداد جديد. وكان سليمان يرى أن الاستيلاء على هذه القلعة يحتاج إلى الصبر والعناية. وواصل الحصار على رأس جيشه.

بعد شهر من القتال، استسلم الفرسان سنة 1522. التقى سليمان قادتهم، وسمح لهم بمغادرة الجزيرة وفقاً للاتفاق. لقد تجاوزت دفاعات رودس القوية. وأصبح حاكماً يحسب له حساب في البر وفي الطرق البحرية أيضاً.



في سنة 1526، غادر الجيش إسطنبول من جديد. وكانت الطريق هذه المرة تمتد إلى المجر. انهمر المطر على الطرق أياماً. وفاضت الجداول وتحولت الأرض إلى طين. وصار دفع عربات المدافع الثقيلة إلى الأمام صعباً. كان على الجنود أحياناً أن يصارعوا الطريق نفسها قبل أن يصلوا إلى العدو.

كان في مواجهة سليمان ملك المجر لويس الثاني. ضم جيش الملك فرساناً أقوياء مدرعين، ومحاربين ذوي خبرة، ووحدات جاءت من بلدان مختلفة. وكان هجوم هؤلاء الفرسان خطيراً إلى حد أنه يستطيع تشتيت القوات التي تقف أمامه.

أخيراً، اقترب الجيش العثماني من موهاج. وكانت صفوف الجيش الخصم تظهر في البعيد. وبينما كان جنود سليمان يتخذون مواقعهم بعد المسير الطويل، بدأت حركة في السهل. كان الفرسان المجريون يستعدون للهجوم. وأصبحت المواجهة الكبرى المنتظرة على الأبواب.



في البداية، سُمع دوي من بعيد. ثم تعالت أصوات الحوافر. كان الفرسان المدرعون يسرعون في السهل، ورماحهم تمتد إلى الأمام. وأحاط الغبار المتصاعد من الأرض بالخيول المقتربة.

في لحظة كهذه، قد يفقد الجيش نظامه إذا استولى عليه الخوف. أما في جيش سليمان، فكان القادة يعرفون مواقعهم، والوحدات تساند بعضها بعضاً. كانت الاشتباكات الأولى عنيفة. وتقدم الفرسان المجريون إلى داخل الصفوف العثمانية. كان الخطر في الميدان حقيقياً، ولم يكن النصر قد أصبح في يد أحد بعد.

كان سليمان في قلب الجيش. واستمر القتال بمشاركة الإنكشارية والمدافع والوحدات الأخرى المحيطة به. وفي الميدان نفسه، كانت سرعة الخيول وقوة الأسلحة وقدرة الجنود على التحمل تُختبر معاً. وكان على السلطان أن يحافظ على نظام جيشه وسط ذلك كله. فمن هذه اللحظات الصعبة سيولد النصر الذي سيتحدث عنه الناس سنوات طويلة.



مع تقدم المعركة، فقد هجوم الجيش المجري قوته. وظهر أثر قوة النيران العثمانية والهجمات المضادة. تفرقت الوحدات، وانتقل التفوق في الميدان إلى جيش سليمان.

في 29 أغسطس 1526، انتهت معركة موهاج بانتصار عثماني كبير. وفقد ملك المجر حياته أيضاً أثناء الانسحاب. غيرت هذه المعركة القصيرة، لكنها عميقة الأثر، مستقبل أوروبا الوسطى. لم يكن سليمان يواجه وحدة صغيرة، بل جيشاً كبيراً لمملكة. وقد هزمه.

حين حل المساء، حل صمت مثقل بالتعب محل ضجيج السهل. كان الجنود يبحثون بعضهم عن بعض، والوحدات تتجمع من جديد. أما سليمان، فقد بدأت أمامه أسئلة جديدة بعد النصر: أين سيقم الجيش؟ وكيف ستصل المؤن؟ وما الخطوة التالية؟ لم يكن عمل القائد الكبير ينتهي بانتهاء المعركة.



بعد موهاج، واجه سليمان آل هابسبورغ، إحدى أقوى الأسر الحاكمة في أوروبا. كان حكم الإمبراطور شارلكان يمتد على بلدان واسعة. وكان أخوه فرديناند يريد أيضاً فرض سيطرته على المجر. ولم يعد سليمان يواجه القلاع وحدها، بل خطط الدول الكبرى أيضاً.

في سنة 1529، قاد جيشه إلى مشارف فيينا. لكن الأمطار، وصعوبة الطرق، واقترب الشتاء جعلت الحصار عسيراً. ولم تؤخذ المدينة. فسحب السلطان جيشه. وفي السنوات التالية، خرج في حملات جديدة؛ واستمر الصراع في ميادين القتال والقلاع ومفاوضات السفراء.

لم تكن كل بوابة تُفتح من المحاولة الأولى. وكانت قوة سليمان تظهر أيضاً في قدرته على مواجهة خصوم بهذه القوة طوال سنوات طويلة. وكانت قصور أوروبا تراقب بعناية الاتجاه الذي سيسير نحوه. وحتى خبر الاستعداد لحملة كان يدفع العواصم البعيدة إلى إعادة حساباتها.



امتدت طرق سليمان إلى الشرق أيضاً. وكانت الدولة الصفوية خصماً قوياً. جعلت الجبال والمسافات البعيدة واحتياجات الجيش هذه الحملات صعبة. وفي سنة 1534، دخلت بغداد تحت الحكم العثماني. أما في الغرب، فالتسعت السيطرة العثمانية بضم بودين ومراكز مهمة أخرى.

وفي البحار، كان خير الدين بربروس باشا يؤدي مهامه، وهو أحد كبار القادة الذين اختارهم سليمان. وفي سنة 1538، واجه في بريفيزا أسطول الحلفاء الكبير الذي قاده أندريا دوريا. زاد النصر الذي حققه بربروس من القوة العثمانية في البحر المتوسط. ولم يكن سليمان على متن السفن في تلك المعركة؛ فقد كان أسطوله وقادته هم من يخوضون صراع دولته في البحار.

ومن أبرز الأماكن التي أخذت في عهده بلغراد ورودس وبودين وأستركون وبغداد وسيكتوار. وقد جاء الوصول إلى كل اسم من هذه الأسماء على الخريطة بعد طرق طويلة واستعدادات كبيرة ومعارك شاقة.



حين كان يعود إلى إسطنبول، كانت تُوضع أمامه هذه المرة رسومات المباني ووثائق الدولة، إلى جانب خرائط الحملات. وكان اسم سليمان سيذكر أيضاً مع القوانين والعمارة والشعر. وبينما كان جامع السلمانية، الذي بناه المعمار سنان، يرتفع فوق المدينة، كان يعبر بحجارته وقبابه عن قوة عصره.

كان يستخدم اسم «مُحَيٍّ» في أشعاره. وقال في أحد أبياته: «لا نعيم في الدنيا يضاهي نفساً في عافية». أي إنه كان يقول إن الدنيا لا تعرف سعادة أعظم من نفس يتمتع فيه الإنسان بالصحة. كانت هذه كلمات إنسان عرف الطرق الطويلة والتعب والمرض.

ومع مرور السنوات، ابيضت لحيته. لكن اسمه ظل يُذكر في البلدان البعيدة باحترام كبير واهتمام. وفي أوروبا، كانوا يسمونه «سليمان العظيم». ولم يكن هذا الاسم يصف مجرد قصر نفخ، بل أحد أقوى حكام عصره.



في سنة 1566، بدأت الاستعدادات لحملة جديدة في إسطنبول. لم يكن السلطان الذي انطلق هذه المرة هو سليمان الشاب الذي سار إلى بلغراد. فقد تجاوز السبعين، وأصابه المرض، وحمل أعباء حكم طويل. وكان مضطراً إلى قطع جزء من الطريق في عربة. ومع ذلك، خرج في حملته الأخيرة على رأس جيشه.

قاومت سيكتوار بخنادقها ودفاعاتها المتينة. وبينما كان الحصار مستمراً، اشتد مرض سليمان. وفي شهر سبتمبر، توفي في خيمته أثناء الحملة. وأخذت القلعة بعد وفاته بوقت قصير.

خلال حكمه الذي دام ستاً وأربعين سنة، خرج بنفسه في ثلاث عشرة حملة كبرى. وقد أمضى سنوات من حياته على صهوة جواد، وفي طرق الجيوش والمعسكرات.

وهكذا اكتملت رحلة الحاكم الشاب الذي امتطى حصانه ذات صباح في إسطنبول. ترك وراءه انتصارات كبيرة، ودولة اتسعت، وعمائر ارتفعت نحو السماء. وحتى بعد قرون، ظل اللقب نفسه يُسمع كلها ذكر اسمه: سليمان العظيم.

